

الدور الريادي للإمامين الأوزاعي والشيباني في تدوين القانون الدولي الإسلامي

عصر الإمامين الأوزاعي والشيباني

أ. حمزة أحمد

جامعة الجلفة

abstract

Faqih, the only one who wrote about the origins of international relations in detail never before by his enemy, the founder of the international legal thought.

Finally we say that the Imams Imam Abu Amr Ouzai and Imam Muhammad ibn al-Hasan al-Shaibani they have leadership in this area, not preceded by one in the whole world in the classification in the subject, which he calls the jurists to walk, and they were Oqubla it special and popular attention entirely, even varieties it and discussed many things multiple issues, He classified Awzaa'i book known as Sir discussed the Imam Abu Hanifa and Imam Abu Yusuf on behalf discussed it Reply: reply to the conduct of Ouzai, then Imam Shafei discussed subdirectories and signs Ouzai in his famous mother a writer, and Mohammed al-Shaibani has been directed to this topic-oriented adult He said accountability of several books such as his book Mabsoot who knows the origin, then two books with great class in which to walk the small and the large walk and collect detailed poked, until he surpassed his peers, winning a head start.

If the Imam al-Shaibani in Islam but in the world and coverage, because the founder of the famous international legal thought when Europeans puppy goats Dutch born after Shaibani more than eight hundred years, so Some Western is Imam al-Shaibani founding of this legal thought, and founded the association in Europe on behalf of the Association Shaibani of international law, and to label him a puppy goats Muslims, and this recognition of the truth of Westerners.

الكلمات المفتاحية:

Faqih- international relations – ibn al-Hasan al-Shaibani- Imam Abu Amr Ouzai

مقدمة:

شهد الإمام الأوزاعي العصر الأموي و العباسي، أما الإمام الشيباني فقد شهد العصر العباسي فحسب، و كان المجتمع الإسلامي في العصرين مكونا من العرب الفاتحين و الموالي و في سنة 132هـ انقضت الدولة الأموية و بويع أبو العباسية السفاح بالخلافة، و بعد ما تولى أبو جعفر المنصور أمر الخلافة قام بإرساء قواعد الحكومة العباسية، و القضاء على كل ما دبر من المكائد و الدسائس ضد الدولة، و لما آل أمر الخلافة إلى المهدي بسط يده في العطاء و رد المظالم إلى أهلها لكن ضعف نفوذه في أمر الدولة لما ترك الإشراف بنفسه على كل أمر من أمور الدولة، و في عهد هارون الرشيد وصلت الخلافة العباسية إلى مكانة عالية و درجة مرموقة في شتى مجالات الحياة، و قد رسمت الدولة العباسية لنفسها خطة في الإحاطة بالأمويين و العلويين و أعداء الدولة العباسية من غير هوادة، فلم يرحموا كل من ثار ضدهم، فهذا هو الرشيد خطّ أمانا ليحي بن عبد الله الطالبي و استفتى العلماء في هذا الأمان فأجابه الإمام محمد بن الحسن الشيباني بأنه أمان مؤكد لا حيلة في نقضه لكن الرشيد لم يأخذ برأي الإمام محمد الشيباني و قتل يحي مادام قد رأى أن ذلك فيه مصلحة للدولة على كل أمر¹.

و سياسة الدولة العباسية كما لقيت مقاومة مسلحة لقيت مقاومة من نوع آخر تمثلت فيما صدر من بعض العلماء من آراء، تتهم بني العباس وولاهم بنقض العهود و سفك الدماء و أخذ الأموال بغير بحق كما حدث من الإمام الأوزاعي مع عبد الله بن علي عم المنصور²، هذا من الناحية التاريخية و السياسية، أما من الناحية الاجتماعية فبرزت العصبية بين العرب و الموالي و بين العرب

أنفسهم، فالحجازيون يتعصبون للحجاز على العصبية حملت على وضع الإخبار في مزايا البلاد و عيوبها و كذلك أمتاز العصر العباسي في حياته الاجتماعية بظاهرة اجتماعية بارزة هي كثرة الرقيق ولذلك تناول الإمامان الأوزاعي و الشيباني قضايا الرقيق و أحكامه في كتبهما، و من الناحية الفكرية و الثقافية فقد كان العصر العباسي عصر الازدهار و التأسيس لكل العلوم تقريباً³. و تمثلت النهضة العلمية في العصر في ثلاث جوانب:

1- حركة التصنيف

2- حركة التنظيم العلوم الأساسية

3- حركة ترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية.

و ظهرت في هذا العصر مدرستان، مدرسة الرأي و مدرسة الحديث، جنحت مدرسة العراق إلى الأخذ بالرأي لقلة الأخبار المعتمدة عندهم، و الحجازيون اتجهوا إلى مدرسة الحديث، و قد شملت هذه النهضة العلوم الإسلامية كلها من التفسير و الحديث و الفقه و الأدب و التاريخ و علوم النحو و العروض و غيرها من العلوم الأخرى⁴. ترجمة الأوزاعي:

هو عبد الرحمان بن عمرو بن محمد الأوزاعي يكنى أبا عمرو⁵، و قيل كان اسمه عبد العزيز فسمى نفسه عبد الرحمان⁶، و الأوزاع محلة خارج أسوار دمشق، يخرج إليها من باب الفراديس، كانت فيها جماعة من أوزاع اليمن أي جماعات من قبائل شتى فسميت باسمهم و في الأوزاع أقوال آخر ذكرها المترجمون للإمام الأوزاعي، و قيل إن نسب الأوزاعي إلى بلدة العقبة التي اشتهرت باسم أوزاع لتزول شتى القبائل فيها، رجح هذا القول أحمد بن عمير الذي كان علامة بحديث أهل الشام و أسباب أهلها⁷، و قيل هو غير عربي و إنما هو من سبي اليمن و قيل بل هو من سبي السند⁸، ولد الأوزاعي على القول الراجح سنة ثمان و ثمانين للهجرة، و قيل سنة ثلاث و تسعين، ولد في زمان كان فيه كثير من الصحابة مازال حياً و أدرك جماعة كبيرة من التابعين، فتعلم منهم و تأدب بأدبهم، كانت ولادته في مدينة بعلبك من بلاد الشام و هي الآن بلدة معروفة في لبنان توفي والده في طفولته فنشأ في حجر أمه في قرية الكرك من قرى البقاع، و كان بيت أمه بيت فقير فنشأ فقيراً، انتقلت أمه به إلى دمشق حينما كان عمره فوق الرابعة، كفله و رباه أحد معارف والده فسكن بيته إلى البلوغ و التحق بالديوان كاتباً⁹.

كانت دمشق في طفولته الأوزاعي و شبابه عاصمة الخلافة الأموية، عامرة بالمحدثين و الفقهاء، و أعلام العلوم الإسلامية، فانتهل من مناهلهم العذبة، و تربى في أحضانهم و كان من ابرز أساتذته الإمام مكحول الشامي¹⁰.

و في دمشق نكح امرأة اسمها جويرة فأنجبت للأوزاعي أولاد أشهرهم ابنه محمد الذي اشتهر بزهده و تقواه، ما كان معاصروه في أنه من أولياء الله، قال له والده ناصحاً يا بني لو قبلنا من الناس كل ما يعطوننا لهُنّا عليهم¹¹.

استفاد الأوزاعي من خلق كثير من التابعين يصعب حصرهم، و كان من مشايخه البارزين مكحول الشامي و ابن شهاب الزهري و عطاء بن أبي رباح و أبي جعفر الباقر و عمرو بن شعيب و يحيى بن أبي كثير و علقمة بن مرشد، و محمد بن سيرين، و ميمون بن مهران، و ابن المكندر و الوليد بن هشام و قتادة، و نافع بن عمر¹²، و تضلع بعلوم مشايخه و برز في الفقه و الاجتهاد حتى صار إمام أهل الشام، أما الذين روى عنه و تتلمذوا عليه فكثيرون، كما يظهر من كتب التراجم، روى عنه بعض مشايخه أيضاً مثل ابن شهاب الزهري و يحيى بن أبي كثير، و كان ممن روى عنه ابن مالك بن أنس و سفيان الثوري و شعبة، و أبو اسحاق ...ص3 و سعيد بن عبد العزيز، و عبد الله بن المبارك، و الوليد بن مسلم و المعافي بن عمران و غيرهم¹³، و بلغ الأوزاعي بفضل الله و بحمده و إخلاصه منزلة رفيعة في العلم و العمل و الأئمة و المعاصرون للأوزاعي أقرؤا بعظمته و فضله، و قال عبد الرحمان بن مهدي أئمة الناس في زمانه أربعة: سفيان الثوري في الكوفة و مالك في الحجاز و الأوزاعي في الشام و حماد بن زيد في البصرة¹⁴، و قال يحيى بن معين العلماء أربعة: الثوري و أبو حنيفة، و مالك و الأوزاعي¹⁵.

ترجمة الإمام محمد بن الحسن الشيباني:

هو محمد بن الحسن بن فرقد كنيته أبو عبد الله الشيباني نسباً أو ولاء كما اختلف فيه المترجمون له، و لقد ذهب أكثر المؤرخين إلى أن الإمام الشيباني من مدن العراق¹⁶، واختلف المؤرخون في الموطن الأصلي لأسرته، قال الإمام الذهبي كان والده من أهل حرستا (قرية مشهورة في دمشق) قدم العراق في آخر عهد بني أمية فولد له محمد بواسط¹⁷، و قال الحسن بن فرقد الحرشاي¹⁸، وذهب ابن السعد في طبقاته و ابن جرير في تاريخه إلى أن أسرة الإمام الشيباني أصلها من الجزيرة و أن والده كان جنديان جند الشام ثم انتقل إلى واسط وأقام في واسط مدة¹⁹ ثم اتفقت كلمة المؤرخين على أن والد الإمام الشيباني انتقل مع أسرته أخيراً إلى الكوفة و توطن بها فكانت مركزاً كبيراً للعلم والعلماء، مركز للعلوم والثقافات، كانت معمورة بالعابرة والشخصيات الفذة في مختلف المجالات و في هذا الجو العلمي والديني نشأ وترعرع الإمام الشيباني.

و لقد حرم الإمام الشيباني من الرعاية الأبوية في المراحل الأولى لطلبه العلم، توفي أبوه و الإمام الشيباني في دور طلب العلم لكن أباه رحمه الله ترك له مالا كثيراً أنفقته كله محمد بن الحسن في طلب العلم، يقول الشيباني رحمه الله ترك أبي ثلاثون ألف درهم، فأنفق خمسة عشرة ألف على النحو والشعر وخمسة عشرة ألف على الحديث والفقه²⁰.

و كان محمد بن الحسن الشيباني من أذكى العالم كما وصفه بهذه الصفة الإمام الذهبي و كان متقد الذهن، يملك ذاكرة قوية، فهذه المواهب التي أوتيت من الله الحكيم التقدير أعانت في اكتمال شخصيته و بلوغه أقصى درجات العلم والعمل.

اتصل محمد بن الحسن الشيباني بحلقة إمام أبي حنيفة و لازمه أربعة سنوات و توسم فيه الإمام أبو حنيفة مخايل النبوغ و السعادة، فأقبل عليه و جعله من أحص تلاميذه، و توفي الإمام أبو حنيفة في سنة ستة وخمسين ومائة، و ما أتم الشيباني دراسته فلازم الإمام أبو يوسف أكبر تلاميذ أبي حنيفة، و أتم عنده دراسة العلوم الإسلامية خاصة دراسة الفقه الإسلامي، و استفاد من علماء ومشايخ كثيرين ارتحل الإمام محمد بن الحسن الشيباني إلى المدينة المنورة لينهل من منهل عالم المدينة مالك بن أنس، و يروى عنه كتابه الشهير الموطأ فأقام في المدينة ثلاث سنوات وبضع أشهر، و سمع من مالك بن أنس سبع مائة أو أكثر من سبع مائة حديث قال حافظ بن حجر العسقلاني كان مالك لا يحدث من لفظه إلا قليلاً، فلولا طول إقامة محمد عنده و تمكنه منه ما حصل له عنه هذا²¹.

و كان الشيباني جامعاً بين المدرسة الفقهية العراقية التي يمثلها الإمام أبو حنيفة و بين المدرسة الفقهية الحجازية التي يمثلها الإمام مالك، استفاد من هاتين المدرستين و اختار منها اجتهادات و مسائل أثناء إقامته في المدينة المنورة، استفاد من كثير من محدثين و الفقهاء الذين زاروا المدينة المنورة أثناء إقامته فيها فازداد عدد شيوخه، و من مشايخ محمد بن الحسن الشيباني سوى أبي حنيفة و أبي يوسف و مالك ابن أنس و سفیان الثوري و عبد الرحمن الأزاعي و ابن جريح المكي و مسعر بن كدام، و مالك بن مغول و يونس ابن أبي إسحاق و داود الطائي و القاسم بن معن و زفر بن الهزبل وغيرهم²².

أثر الإمام الأزاعي في تدوين القانون الدولي الإسلامي:

السيرة جمع سيرة و هي الطريقة في الأمور و أول من أستعمل لفظة (السيرة) بمعناه العرفي و هي تصرف الدولة مع الشعوب الأخرى أو القانون الدولي الإسلامي لا يزال مخفياً، غير أن الفقهاء الحنفيين كانوا أول من شاع بينهم هذا المصطلح بالمعنى الجديد، و العالم الفذ الكبير الإمام الشيباني الذي أولى اهتمامه البالغ بالسيرة، لم يوضح لنا هذا المصطلح توضيحاً دقيقاً، و لكن يمكن أن يحدد المصطلح بالنظر في محتويات كتابه (السيرة الكبير) فقال السرخسي للشيباني الذي شرح السيرة الكبير للشيباني: اعلم أن السيرة جمع سيرة و به سمى هذا الكتاب له يبين فيه سيرة المسلمين في المعاملة مع المشركين من أهل الحرب و مع أهل العهد منهم من المستأمنين و أهل الذمة و مع المرتدين الذين هم أخبث من الكفار بالإلنكار بعد الإقرار، و مع أهل البغي الذين حالهم دون حال المشركين و إن كانوا جاهلين و في التأويل مبطلين²³.

و القانون الدولي الإسلامي ليس نطاقاً منفصلاً عن الشرح الإسلامي بل هو امتداد له يرمي إلى تنظيم العلاقات بغير المسلمين، فهذا القانون تلزمها دولة الإسلام و جميع أفرادها عند المعاملة بالدول غير المسلمة و مواطنيها، و لو كان فيهم ما يخالف مصالحهم

و بما أن الأوزاعي متطلع بالحديث و الفقه و المغازي فترى له أنه أثر بالغا في علم السير و القانون الدولي الإسلامي، و هو من الفقهاء القدامى الذين عالجوا السير كموضوع مستقل ورد على الإمام أبي حنيفة في بعض ما ذهب إليه ردّا بليغا، و لم يصل إلينا الكتاب بتمامه إلا ما نقله عنه الإمام الشافعي في كتاب الأم²⁴.

و إذا أمعنا النظر نجد أن الأوزاعي يسلك مسلك المحدثين و الحجازيين في عصره و الإمام الشافعي ينقل كلامه ما رد عليه أبو يوسف القاضي، ثم يؤيد قول أحدهما بدلائل تظهر له و أكثر ما يميل إلى ما قاله الإمام الأوزاعي، فقد رجح قوله في قسمة المغنم قبل إخراجهم إلى دار الإسلام، و أخذ السلام و غير ذلك من المسائل فقال الإمام الشافعي في مسألة (أخذ السلاح) و ما أعلم ما قال الأوزاعي إلا موافقا للسنة معقولا، لأنه يحل في حال الضرورة الشيء، فإذا انقضت الضرورة لم يحل، و ما علمت قول أبي حنيفة قياسا و لا خبرا²⁵، و في بعض المسائل أبو الإمام أبا حنيفة و بين العذر عن الأوزاعي فقال: قال أبا حنيفة رحمه الله تعالى: فمن يستعين به المسلمين من أهل الفقه فيقاتل معهم العدو لا يسهم لهم و لكن يرضخ لهم.

و قال الأوزاعي يسهم، و القول ما قال أبو حنيفة، و عذر الأوزاعي فيه ما وصفت قبل هذا²⁶.

و الرجل الذي يكون معه فرسان لا يسهم إلا الواحد، و قال الأوزاعي: سهم للفرسين و لا يسهم لأكثر من ذلك، و كذلك الإمام الأوزاعي يرى السهم لصبيان و نسوة شهدت القتال و الإمام أبو حنيفة يأباه و الإمام الشافعي يقف في هذه المسائل موقف أبي حنيفة، و يبدو أن الإمام الأوزاعي يحاول أن يختار ما هو الأحوط، فكذلك يرى السهم للصبي و المرأة، و لا يسمح أن ينتظر برد السلاح الفراغ من الحرب، و لا يرى القتال قتال العدو و فيه أطفال المسلمين، و يقول يكف المسلمون عن رميهم، فإن برز احد منهم رموه، و الحق أن هذا الكتاب يدل على إمامة الأوزاعي في السير، و غزارة معرفته بالمغازي، و سعة نظره في الحديث النبوي الشريف، و لو جمعت آراؤه المنشورة في الأم، و في الكتب الأخرى ضمن أقوال الأئمة الكبار، لكان كتابا ضخما، قال الشيخ محمد أبو زهرة: و ترى في ثنايا كتاب الرد على سير الأوزاعي صورا كثيرة للاختلاف بين فقهاء المدينة و فقهاء العراق و منها تتصور منازعهم المختلفة²⁷.

و يقول الدكتور مجيد قدوري، مهما يكن من أمر، فإن مقال الأوزاعي عن السير يعالج قضايا عملية تتعلق بأحكام الحرب و لاسيما معاملة أفراد العدو، و توزيع الغنائم فلا يستطيع الباحث أن يعتبر هذا الكتاب دراسة مركزة شاملة للأحكام الشرعية التي تنظم العلاقات الإسلامية مع العالم الخارجي، فقد كرّس الأوزاعي اهتمامه لمعالجة قضايا محددة نشأة عن الفتوحات في أوائل ظهور الدعوة لقضايا و مبادئ عامة، على الرغم من أن دارس الأحكام التي عالجها الأوزاعي يستطيع أن يتبين خلال المبادئ العامة لقضايا معينة، كما أن دراسة الأوزاعي ليست دراسة نظرية في جوهرها، بمعنى أنها لم تكن بحثا يوفر العلل و الأسباب التي تدعم رأيه .

كما أنها لم تكن دراسة منظمة منطقية تعني بأحكام الحرب من وجهة نظرية كما كانت الدراسات المشابهة لها التي بدأت تظهر لدى معاصريه من الفقهاء في العراق²⁸.

و العذر عن الأوزاعي ما أشرنا إليه أنه لم يرد أن يبين ما يحوي جميع المناحي و يشمل الأحكام الشرعية التي تنظم العلاقات الإسلامية مع العالم الخارجي، بل رد في على آراء الإمام أبي حنيفة و فقهاء الطرق، فهذه الناحية هي التي تسببت في أننا لا نراه شاملا لجميع ما يتطلبه الموضوع، لكن ما كتبه هو خير شاهد لما له معرفة دقيقة بزوايا الموضوع و إلمام كبير بالمغازي. و المشاهد كلها فلو وصلت إلينا سائر كتبه لكان من الممكن أن تتمثل بين أيدينا صور واضحة لمثل هذه الأحكام.

أثر الإمام محمد بن الحسن الشيباني في تدوين القانون الدولي الإسلامي:

يعتبر الإمام من طليعة الأئمة من لهم فضل كبير في تدوين هذا العلم الشرعي الجليل و مؤلفاته في الفقه مهدت سبيلا في الكتابة و اخترعت طريقا سلكه جميع أصحاب المذهب ممن بعده، و أخذ الفقه عن أبي حنيفة و أبي يوسف و برع حتى أصبح غماما جليلا

لم يدرك شأنه إلا القليل من الرجال، و له دور كبير في نشر مذهب أبي حنيفة و تدوين أقواله، و كان من أبرز أعضاء المجتمع الفقهي الذي كان يرأسه أبا حنيفة في الكوفة.

ذكر الذهبي قال الشافعي ما رأيت أعقل و لا افقه و لا ازهد و لا أروع و لا أحسن نطقاً و إيرادا من محمد بن الحسن²⁹، و قال إبراهيم الحربي: قلت للإمام أحمد: من أين لك هذه المسائل الدقاق؟ قال: من كتب محمد بن الحسن³⁰.

اجتمع لمحمد بن الحسن ما لم يجتمع لغيره من أصحاب أبي حنيفة غير شيخه أبي يوسف فهو قد تلقى فقه العراق كاملاً و قد صفله القضاء، إذ تلقى عن أبي يوسف القاضي، و تلقى فقه الحجاز كاملاً عن شيخ المدينة مالك، و فقه الشام عن شيخ الشام الأوزاعي، و كانت له قدرة و مهارة في التفريع و الحساب و يملك عنان البيان، ثم تفرس بالقضاء، فكانت هذه الولاية دراسة أخرى أفاد علماً و تجربة و قربت فقهه من الناحية العملية، و جعلته ينحو نحو العمل، و لا يقتصر على التصور و النظر المجرد، و كان في محمد اتجاه نحو التدوين، فهو الذي يعد بحق ناقل فقه العراقيين إلى الأخلاف، و لم يكن نقله مقصور على العراقيين، فقد روى الموطأ عن مالك و دونه، و تعد روايته من أجود الروايات، و قد كان يذكر رده على مالك و أهل الحجاز فيما كان يعتنقه هو من آراء العراقيين³¹.

و الحق إنه إمام مجتهد مطلقاً، صاحب ملكة كاملة في الفقه و النباهة و فرط البصر و التمكن من الاستنباط المستقل به من أدلته كالمجتهدين الآخرين، و هو مجتهد منتسب إلى الإمام أبي حنيفة، لأنه اعتمد قواعد و سار على طريقته في الاجتهاد و الفتوى، و عده ابن الكمال باشا في الطبقة الثانية من طبقة المجتهدين في المذهب القادرين على استخراج الأحكام عن الأدلة على حسب القواعد التي قررها أستاذهم أبو حنيفة و عينها، فإنهم و إن خالفوه في بعض الأحكام الفرعية لكنهم يقلدونه في قواعد الأصول، و به يمتازون عن العارضين في المذهب و يفارقونهم كالشافعي و نظرائه المخالفين لأبي حنيفة في الأحكام غير المقلدين له في الأصول و لكن لم يرضى عنه العلماء و عابوا على ابن الكمال أنه حطّ محمد ابن الحسن ع ن مرتبته في الاجتهاد و رتبته في الفقه، فإن كتب محمد متظاهرة بأنه مجتهد مطلقاً و خالف ابن حنيفة في كثير من آرائه و استنبط الأحكام من مصادر التشريع مثل استنباط الأئمة المجتهدين الآخرين، فما الذي حطه عن رتبته الاجتهاد المطلق؟ و قد ساق الشهاب المرجاني بحثاً علمياً و رد على ابن الكمال ردّاً بليغاً إلى أن قال: فليت شعري ما معنى قوله؟ أن أبا يوسف و محمداً و زفر و إن خالفوا أبا حنيفة في الأحكام لكن يقلدونه في قواعد الأصول، ما الذي يرد من الأصول؟ و حالهم في الفقه إن لم يكن أرفع من مالك و الشافعي و أمثالهما فليسوا بدوئهما و قال أيضاً: و لكل واحد منهم أصول مختصة بها تفردوا عن أبي حنيفة و خالفوه فيها، و من ذلك أن الأصل في تخفيف النجاسة تعارض الأدلة عند أبي حنيفة و اختلاف الأئمة عندها، بل قال للغزالي: إنهما خالفاً أبا حنيفة في ثلثي مذهبه، و نقل النووي في كتابه الأسماء و اللغات عن أبي المعالي الجويني: إن كل ما اختاره المزي أرى أنه تخريج ملتحق بالمذهب فإنه لا يخالف أقوال الشافعي كأبي يوسف و محمد فإنهما يخالفان أصول صاحبهما³².

فالصحيح و ما ذهب إليه المحققون من الأحناف أنه بلغ رتبة الاجتهاد المطلق لكنه حافظ على انتسابه لأبي حنيفة عرفانا لجميل أستاذه عليه في تكوينه العلمي و فرط إجلاله لخله و رعايته لحقه و جرى في تصحيح مذهبه و بيانه لمن يتمسك به لاعتقاده أنه أعلم و أروع و أحق للإقتداء و الأخذ بقوله و أوثق للمفتي و أرفق للمستفتين.

و لا شك أن للإمام محمد الشيباني قد سبقه البعض في الكتابة في الفقه الإسلامي و القانون الدولي، و لكنه هو أول من أبرز في هذا المجال، و كتبه تلقتهما الفقهاء و العلماء بقبول واسع، فما من فقيه بعد إلا و هو يعول عليها، و الكتب الفقهية التي ألفت فيما بعد، كتبت على الطراز الذي اخترعته قريحة محمد، و حرصه الشديد على العلم و الانقطاع إليه كل الانقطاع، و الابتعاد عن المناصب الرسمية، و حذوه فيه حذو أستاذه أبي حنيفة، و توفر الوسائل لديه و الدأب في الدراسة و المطالعة.

من الأسباب التي أدت به إلى المتزلة الرفيعة في هذا الشأن:³³

قال العلامة زاهد الكوثري لم يصل إلينا أي عالم في طبقة كتب في الفقه قدر ما وصل إلينا من محمد بن الحسن، بل كتبه هي العماد للكتب المدونة في فقه المذاهب فالأسدية التي هي أصل المدونة في مذهب مالك، إنما الفت تحت ضوء محمد و الشافعي إنما ألقت قديمة و جديده بعد أن تفقه على محمد و كتب كتبه و حفظ منها ما حفظ، و ابن حنبل كان يجاوب في المسائل من كتب محمد و هكذا من بعدهم من الفقهاء.

و أن الفقهاء القدامى كانوا يتناولون موضوع السير إما في باب الجهاد أو في أبواب أخرى كالمغازي و الغنائم و الردة، لكن أول فقيه عالج موضوع السير على أنه فرع منفصل عن الشرع و اعتنى به عناية بالغة و فتح بابا واسعا يشمل العلاقات الدولية الإسلامية. بمعنى الكلمة هو الإمام محمد بن الحسن الشيباني، وإن الكتابين الذين خصهما لمعالجة الموضوع السير الصغير و السير الكبير من أهم ما ألف في الموضوع ، فالسير الصغير يروي عن أبي حنيفة، و حاول الأوزاعي الرد على سير أبي حنيفة فجأبه أبو يوسف، و لعله و صف بهذا العنوان الصغير بعدما ألف كتابا ضخما له السير الكبير و من الممكن أن يكون الشيباني قد ألف كتابا ثانيا يختلف شكلا³⁴.

و كتاب السير الكبير هو من أواخر مؤلفاته و أكثرها عن السير إسهابا و تدقيقا و شرحه الفقه الجمل الحصري و الفقيه محمد بن أحمد السرخسي، و شرحه معروف طبع أكثر من مرة، و ما قيل في سبب تأليف هذا السفر العظيم، فهو في غاية من البساطة و لا يكاد يصح، يقول السرخسي الذي وضع شرحا له، إن السبب الذي حمل الشيباني على تأليفه هو إن كتاب السير الصغير وقع في يد عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي الفقيه السوري الشهير فسأل عن مؤلفه، فقيل له إن لمحمد العراقي، فقال: ما لأهل العراق و التصنيف في هذا الباب فإنه لا علم لهم بالسير، و يوضح السرخسي قول الأوزاعي بأن مغازي رسول الله صلى الله عليه و سلم كانت من جانب الحجاز و الشام دون العراق، فأهل الحجاز و الشام أعلم بهذه المغازي و الصق بها، فبلغ قول الأوزاعي هذا محمد بن الحسن فاستاء كثيرا و انصرف إلى تأليف هذا الكتاب إرضاء لكبريائه و يقال إن الأوزاعي عندما تصفح الكتاب قال: لولا ما ضمته من الأحاديث لقلت: إنه يضع العلم من عنده نفسه، و إن الله عين جهة إصابة الجواب في رأيه صدق الله و فوق كل ذي علم عليم³⁵.

و قد تناولت مصنفات الشيباني الأخرى موضوع السير، فهذا كتاب الأصل و يعرف بالمبسوط أيضا تناول قدرا كبيرا من هذا الموضوع، و كذا كتاب الجامع الصغير و كتاب الجامع الكبير و الكتب الأخرى تناولت بعض نواحي السير التي تنظم علاقات المسلمين بغيرهم من الشعوب.

و لقد سعى الشيباني إلى تدوين الثروة الفقهية التي أخذها عن أبي حنيفة و أبي يوسف، و بحكم مكونه فقيها بارزا، فإنه أضاف معلومات جديدة إلى تلك الثروة و أمد الأجيال بمواد و مصادر جديدة تتعلق بهذا العلم، و عطاء الشيباني بالنسبة إلى طلاب القانون الدولي الإسلامي عطاء غني لا يستغنى عنه، كما انه يحق لنا أن نعتبره أول واضح للقانون الدولي الإسلامي.

الخاتمة :

وأخيرا نقول إن الإمامين الإمام أبا عمرو الأوزاعي والإمام محمد بن الحسن الشيباني كانا لهما ريادة في هذا المجال ، لم يسبقهما أحد في العالم كله في التصنيف في هذا الموضوع الذي يسميه الفقهاء السير ، وكانا أقبلا عليه اهتماما خاصا وإقبالا كليا ، حتى صنفا فيه وناقشا أشياء كثيرة ومسابل متعددة ، فصنف الأوزاعي كتابه المعروف السير وناقش فيه الإمام أبا حنيفة ثم ناقش عليه الإمام أبو يوسف باسم الرد: الرد على سير الأوزاعي ، ثم ناقش الإمام الشافعي دلائله ودلائل الأوزاعي في كتابه الشهير كاتب الأم ، وأما محمد الشيباني فقد توجه على هذا الموضوع توجهها بالغا وذكر مسائله في عدة كتب مثل كتابه المبسوط الذي يعرف بالأصل ، ثم صنف كتابين عظيمين فيه السير الصغير والسير الكبير وجمع مسائله مفصلا ، حتى فاق أقرانه وحاز على سبق.

وإذا كان الإمام الشيباني الفقيه الوحيد الذي كتب عن أصول العلاقات الدولية في تفصيل وشمول لم يسبق به عدوه مؤسسا للفكر القانوني الدولي في الإسلام بل في العالم ، لأن المؤسس الفكر القانوني الدولي الشهير عند الأوروبيين جرو تيبوس الهولندي ولد بعد

الشيباني بأكثر من ثمان مائة عام ، ولذلك يعد بعض الغربيين الإمام الشيباني مؤسساً لهذا الفكر القانوني ، وأسسوا في أوروبا جمعية باسم جمعية الشيباني للقانون الدولي ، ولقبوه جرو تيروس المسلمين ، وهذا اعتراف بالحقيقة من الغربيين.

قائمة المصادر والمراجع

- 01 بلوغ الأمانى 40 – 41
- 02 البداية و النهاية 136/10 – 137
- 03 ضحى الإسلام 12/2
- 04 ضحى الإسلام 14/2
- 05 سير أعلام النبلاء 14/2
- 06 تاريخ دمشق الكبير 107/37
- 07 البداية و النهاية 115/10
- 08 وفيات العيان 127/3
- 09 موسوعة فقه عبد الرحمان الأوزاعي 15
- 10 معجم البلدان 309/1
- 11 سير أعلام النبلاء 109/7
- 12 مقدمة الأمير شكيب أرسلان 22 – 31
- 13 تاريخ دمشق الكبير 104/37
- 14 تاريخ دمشق الكبير 105/37
- 15 تهذيب الكمال في أسماء الرجال 113/17
- 16 مناقب أبي حنيفة و صاحبه للذهبي 79
- 17 تاريخ الطبري 2531/3
- 18 الإمام محمد بن الحسن الشيباني 24
- 19 الطبقات الكبرى 236/7
- 20 أخبار أبي حنيفة للضميري 125
- 21 تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة 361 – 362
- 22 تراجم مشايخ الإمام محمد بن الحسن الشيباني للندوي 31 – 53
- 23 المبسوط السرخسي 10 – 22
- 24 الأم 323/3
- 25 الأم 343/7
- 26 الأم 343/7
- 27 أبو حنيفة حياته و عصره لمحمد أبو زهرة 206
- 28 تقديم كتاب القانون الدولي الإسلامي 37
- 29 بلوغ الأمانى 56
- 30 الحافظ الذهبي 136/9
- 31 أبو حنيفة حياته و عصره لمحمد أبو زهرة 209/208
- 32 بلوغ المرام 87 – 86
- 33 بلوغ الأمانى 61 – 60
- 34 مقدمة القانون الدولي الإسلامي 57
- 35 السرخسي شرح كتاب السير الكبير 03/1